دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: الاستعارة عند السكاكي
المصدر: مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي: الولي، محمد
المجلد/العدد: ع 6
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 1983
الناشر: جامعة سيدي محمد بن عبدالله - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الصفحات: 179 - 191
رقم MD: 228527
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: HumanIndex, AraBase
مواضيع: الصور الجمالية ، اللغة العربية ، البلاغة العربية ، الأدب العربي ، النصوص الأدبية ، المجاز ، الدلالات اللغوية، الاستعارة
رابط: https://search.mandumah.com/Record/228527

© 2018 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الاستعارة عند السكاكي

محمد الولي

ا - كيف نقرأ السكاكي

ان الدراسة لأي نص تضع الباحث أمام اختيارين : الأول : تنطلق فيه من نظرية جاهزة وفي هذه الحالة فإن النص المدروس سيكون خاطئا بمقدار عدم اتفاقه مع هذه النظرية . الثاني : ننطلق فيه من النص المدروس نفسه مع محاولة ضبط مفاهيمه ومحاولة تتبع ما قد يكون فيها من انسجام أو تنافر وترصد المدَى الذي تصل إليه هذه المفاهيم . هل تصل إلى النهاية وستنفذ كل امكاناتها أم أن هذه المفاهيم يقف بها صاحبها في وسط الطريق . هذا الاختبار الثاني هو الطريق الذي اخترته في دراستي عن الاستعارة عند السكاكي .

ب - مسلمات أولية

هكذا انطلق السكاكي من مجموعة من المسلمات منها ان ايراد المعنَى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه والنقصان ، ووضح ان هذه الامكانية تنتفي مع الكلمات ذات الدلالة الاصطلاحية أو الوضعية . لأننا في هذه الحالة اما اننا نعرف معاني الكلمات واما اننا لا نعرفها وفي الحالتين فلا سبيل إلى الحديث عن الزيادة أو النقص في وضوح الدلالة . لكن متَى يتحقق هذا حسب السكاكي ، إنه يتحقق في تلك الالفاظ الدالة على مفهوم لكن ذلك المفهوم يستدعي معه مفهوما آخر ، من هنا أهمية الدراسة الدلالية في دراسة البيان ولذلك سارع السكاكي إلى تقسيم دلالة الكلم إلى نوعين : الأولى دلالة اللفظ على المفهوم من غير زيادة ولا نقصان وهذه دلالة وضعية أو دلالة المطابقة . اما الثانية فهي تلك حيث يكون لمفهومها الأصلي تعلق بآخر امكن ان تدل عليه بواسطة ذلك التعلق بحكم العقل

وهذه تسمى دلالة عقلية . لكن لهذه الدلالية العقلية وضعية متميزة إذ أن هذا لا يمكن أن يتحقق الا «بمعونة القرينة» وما القرينة إلا السياق . ولكن قد يثار اعتراض على هذا بالقول إن المتعدد المعاني هو الآخر يحتاج إلى قرينة لكي نجد معنًى واحدا يكون هو المقصود ، مثل كلمة القرء التي تدل على معنيين : الطهر والحيض غير مجموع بينهما . والسكاكي لا يعتبر هذا قرينة انه يقول : «واما ما يظن بالمشترك من الاحتياج إلى القرينة في دلالته على ما هو معناه فقد عرفت أن منشأ هذا الظن عدم تحصيل معنَى المشترك الدائر بين وضعين . وحق الكلمة في المجاز ان لا تستغني عن الغير في الدلالة على ما يراد منها يعينها له ذلك الغير» هكذا اذن فإن الوضع لا يحتم أن يكون اللفظ متضمنا معنىً واحدا ، بل قد يتضمن أكثر من معنى والفرق بين هذا والمجاز ان هذين المعنيين ينتميان هما معا إلى الاستعمال أي إلى المعجم . بينما المجاز لا ينتمي إلى الاستعمال ولا إلى المعجم انه معنىً طارئ وركيزته الوحيدة هي القرينة .

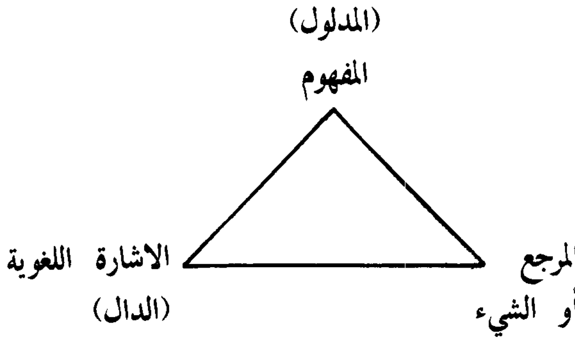
ج – وضع الحدود بين المجاز والكتابة والاستعارة

يبدو أن السكاكي يسير بالتدريج فبعد أن وضع قاعدة تجمع كل البيان حاول أن يخطو خطوة أخرى لكي يضع تمييزات داخل البيان نفسه ، وذلك بالنظر إلى نوع العلاقة التي تتحقق بالانتقال من المدلول الأول إلى الثاني . «فالمجاز ينتقل فيه من الملزوم إلى اللازم مثل رعينا غيثا والمراد لازمه وهو النبت ... واما نحو قولك امطرت السماء نباتا أي غيثا من المجازات المنتقل فيها من اللازم إلى الملزوم» . اما الكناية فـ«ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم كما تقول فلان طويل النجاد والمداد طول القامة الذي هو ملزوم طول النجاد فلا يصار إلى جعل النجاد طويلا أو قصيرا الا لكون القامة طويلة أو قصيرة» . والانتقال من مفهوم إلى آخر إذا حصلت بينهما مشابهة أصبح المجاز استعارة . وهذه خطوة أخرى في سبيل وضع تمييز آخر في مجال البيان وهذا يُبيح له في نفس الآن نفي التشبيه من البيان أو أنه لا يتحدث عنه الا لأجل فهم الاستعارة .

ملاحظـــة :

ان هذا كله يستدعي جملة ملاحظات : الأولى ان التغير الذي يحدث في المجاز

لا يمكن التعامل معه بوضعه في مستوَى واحد بالنسبة للكناية ، فإذا كان المجاز انتقالا من اللازم إلى الملزوم ومن الملزوم إلى اللازم والكناية انتقالا من اللازم إلى الملزوم فقط الا يمكن للكناية ان تختلط بالمجاز ، الواقع أن اللزوم مختلف في الكناية عنه في المجاز ، فاللزوم في المجاز يظل محصورا في المفاهيم أو المعاني أو المداليل (جمع مدلول) ، بينما اللزوم في الكناية لزوم مرجعي . فعندما أقول «فلانة بعبدة مهوَى القرط» فإن الجملة لم يحدث فيها أي شيء على مستوَى المفاهيم فكل كلمة استعملت استعمالا وضعيا على مستوَى المدلول لا نجد أية كلمة تستوعب مدلولين لكن الواقع الذي تشير إليه ليس هو المقصود بالذات انما واقع آخر ملازم له هو المقصود . فالمجاز هنا مجازية مرجعية Référentielle وليست مفهومية Conceptuelle ، وحتَّى نفهم هذا نستعين بمثلث ريتشاردز حيث يميز الاشارة والمفهوم والمرجع .



نلاحظ أن موقع المجاز ينحصر بين الاشارة والمفهوم أو على الأقل نلاحظ أن المفهوم الأول الوضعي يحيل إلى مفهوم آخر ، اما بالنسبة للكناية فإن هذه العلاقة الاشارة ـ المفهوم تبقَى مصونة من كل خرق والمفهوم يبقَى وحيدا بعيدا عن التأويل والانزياح أو التباعد يحدث في المرجع فهذا الواقع المذكور يحيل إلى واقع آخرِ غير مذكور ، أي أن ما يتحقق مع المجاز على مستوَى المدلول . المدلول الأول يحيل إلى المدلول الثاني نلاحظ مع الكناية أن المرجع الأول يميل إلى المرجع الثاني . اما دلالة الكلمات على المفاهيم فانها تبقَى سالمة من أي تغيير .

ثانيا : الملاحظة الثانية تتعلق بالتشبيه المسمى بليغا فالتشبيه عند السكاكي عموما دلالته اصطلاحية . وملاحظة بسيطة سنظهر كم هو بعيد عن الواقع هذا الاعتقاد فلو أننا أخذنا جملتين :

الأولى : هذا الحيوان أسد
الثانية : هذا الرجل أسد

للاحظنا بسرعة أن الجملة الأولى لا تحتمل أي تأويل بمعنَى أن الأسد لا يمكن أن يعوض بكلمة أخرى دون تقويض المعنَى ، أو بتعبير آخر فإن دلالة الكلمة وضعية وهي وحيدة ، اما في الجملة الثانية فإن الجملة لا يمكن أن تستقيم الا بفضل تأويل كلمة أسد بشجاع ، أي أن هناك المعنَى الأول الأسد وهذا له تعلق بآخر وهو شجاع . هذا كله يظهر أن أسدا في المثال الثاني مكون بمفهومين . هذا الرجل أسد

الحيوان : المعنَى الأول
شجاع : المعنَى الثاني

ومما يدل على مجازية هذه الكلمة في هذا السياق ان الغاء أحد المفهومين أي الأول مع الاحتفاظ بالثاني فقط لا ينتج عنه هدم لا لبناء الجملة ولا لمعناها ، أي أن نفس القوانين المحكمة في الاستعارة هي نفسها المحكمة في التشبيه البليغ . ودمج الاستعارة في البيان مع نفي التشبيه البليغ عمل لا معنَى له إذا انطلقنا من المسلمات المقدمة في البداية .

ان هذا ليظهر أن المسلمات الأولية والجزئية التي طرحها السكاكي صحيحة ، لكن هذه المسلمات عندما ننقلها إلى مستوَى أعلى مركب لاجل وضع تصنيفات دقيقة بين الادوات التعبيرية اختلطت الأمور عند السكاكي وأصبح هذا النموذج النظري يجمع في خانة واحدة عناصر متنافرة من حيث التكوين . وهذا ما حدث له مع المجاز أو الكناية .

د – الاستعارة المكنية

بعد هذا ننتقل إلى الاستعارة المكنية التي اتخذ منها السكاكي موقفا مضطربا ، فهي عنده «أن تذكر المشبه وتريد به المشبه به دالا على ذلك بنصب قرينة تنصبها وهي ان تنسب إليه وتضيف شيئا من لوازم المشبه به المساوية مثل أن تشبه المنية بالسبع ثم تفردها بالذكر مضيفا إليها على سبيل الاستعارة التخييلية من لوازم المشبه به ما لا يكون الا له ليكون قرينة دالة على المراد . فتقول مخالب المنية نشبت بفلان

طاويا لذكر المشبه به وهو قولك الشبيهة بالسبع .. وقد ظهر أن الاستعارة بالكناية لا تنفك عن الاستعارة التخييلة» .

إن المشبه لا يمكن أن يكون مجازيا معنا بمعنَى ان هذه الكلمة لا يمكن الا أن تكون اصطلاحية وضعية في دلالتها . اما الكلمة التي بعد المشبه أي المستعار له والتي تعتبر من لوازم المشبه به المستعار منه فهي المجازية في الحقيقة . والسكاكي يزعم أن صفة المشبه به قرينة دالة ان المشبه مجازي مع أن العكس هو الصحيح .

فبمجرد القول هذا مشبه فهو يعني حتميا أنه مستعمل في معناه الحقيقي وهو بالتالي قرينة الكلمة المجازية . والسكاكي يجعل هذه قرينة والقرينة تعني الكلمة المستعملة استعمالا حقيقيا وضعيا وهي تكون مجاورة للكلمة المجازية دالة عليه . وهو لا يقف عند هذا الحد إذ أنه يسارع فيقول «بأن نسبة هذه الصفة إلى المشبه استعارة تخييلية» . فالحكم بالقرينة يناقض الحكم بالاستعارة أي المجازية . وهذا كله تحمل إذ كيف يمكن أن تتجاور استعارتان مع ان الاستعارة بتعريف السكاكي نفسه استعمال كلمة في غير موضعها لعلاقة هي المشابهة مع قرينة مانعة من ارادة المعنَى الأصلي . وهذه القرينة هي اللفظة أو الألفاظ المستعملة استعمالا حقيقيا والتي بفضلها نؤول المجاز حتَّى ينسجم مع باقي السلسلة الكلامية . وهذا التأويل الذي يخضع له المجاز تأويل لاجل اخضاع هذه الكلمة للقرينة أو لمعناه . حينئذ يستعيد الخطاب وحدته الدلالية . أما ان تتجاور استعارتان فإن الخطاب يفقد صفة التواصلية ويصبح ركاما من الكلمات .

الواقع أن جملة مثل «المنية انشبت أظفارها» إذا نسينا مؤقتا ما يقوله السكاكي تحتمل قراءتين :

الأولى : ان نعتبر المنية هي القرينة وستكون من حيث المعنَى اصطلاحية وضعية وهي المشبه أو المستعار له . أما انشبت أظفارها فستكون مجازا لوجود كلمة قبلها لا تنسجم معها من حيث الدلالة . فهي اذن استعارة .

الثانية : ان نعتبر المنية مجازا وانشبت أظفارها قرينة . في هذه الحالة سيكون الحيوان هو المشبه والمنية مشبه به (المستعار له والمستعار منه) حينئذ نقول إن القرينة لا تحتمل أي تأويل بكل بساطة لكونها قرينة ، هل يقف الأمر عند هذا الحد طبعا

لا فالسلسلة الكلامية أصابها خلل ما ولا يمكن نفيه الا بتغيير يعيد الانسجام المفقود ومادامت القرينة ثابتة فإن المجاز هو الذي يخضع للتغيير الذي يجب أن يكون في اتجاه استعادة المعنَى بالنسبة للجملة ككل وهذا يقود حتما إلى الخضوع للقرينة بمعنَى أن المجاز يجب أن يؤول حتَّى يحصل اتفاق مع الجزء الثابت وهذا يعني تأويل المنية بالأسد أو ما هو قريب منه . ونحن هنا امام القرينة أي أمام الدال الذي اثبت وجوده بشكل حسي لا سبيل إلى نفيه اطلاقا . مادام الأمر كذلك فنحن نفترض لهذا الدال مدلولا آخر غير أصلي وهو مدلول الحيوان هذا المدلول الأخير هو الذي ينقد الجملة . وذلك هو نفسه التلازم في المعاني الذي ذكره السكاكي في مدخله إلى البيان لكنه لم يحترمه . هكذا سنكون قد عالجنا المسألة بنفس مفاهيم السكاكي الأولية ، وهذا ما كان باستطاعة السكاكي أن يفعله .

هذا كله يتعلق بالاستعارة المكنية أو بالجملة السابقة «المنية انشبت أظفارها» كيف نستطيع تصنيفها ضمن الاحتمال الأول أو الثاني ، إن ذلك لا يمكن أن يتحقق الا بتجاوز إطار الجملة إلى النص وبتجاوز الجملة والنص إلى الواقع . إن الجملة وحدها ستبقَى مضللة مبهمة ما لم يخترق جدارها نحو النص ككل أو الواقع . فهذه الجملة إذا تلفظت في حديقة حيوانات انفلت أحد أسودها من الشباك سيكون لفظ المنية هو المجاز وانشبت أظفارها هي القرينة . واما إذا تلفظ بها مريض على فراش الموت فإن المنية ستكون حقيقية وانشبت أظفارها هي المجاز .

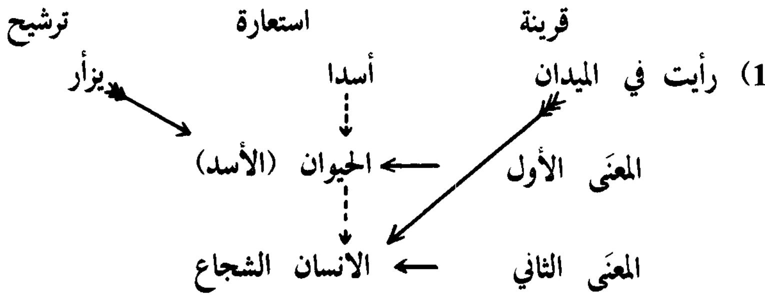
هـ - الاستعارة المرشحة والمجردة

بعد هذا انتقل إلى مناقشة ما سماه السكاكي بالاستعارة المرشحة والمجردة .

فالاستعارة المرشحة هي تلك التي تتبعها بعد أن تتوفر على استعارة وقرينة بما يلائم المستعار منه مثل «ساورت أسداً مصوراً عظيم اللبدتين ، وجاورت بحرا زاخرا لا يزال تتلاطم أمواجه» والمجردة أن تذكر بعد الاستعارة وقرينتها ما يلائم المستعار له مثل «ساورت أسدا شاكي السلاح طويل القناة وحاورت بحرا ما أعظم علومه وأ أجمعه للحقائق» .

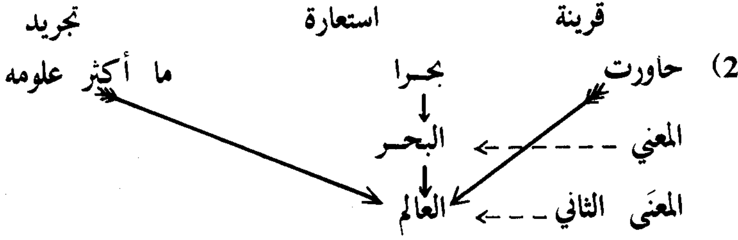
السكاكي يقف في تحليله الاستعارتين عند هذا الحد ، وتناسَى هذه المرة أيضا مسألة الملازمة بين المعاني . أي الانتقال من المعنَى إلى معنَى المعنَى . وإذا حاولنا

استغلال هذه المسلمة فإننا نستطيع أولا صياغة ذلك صياغة شكلية بهده الطريقة فلنبدأ بالمرشحة :

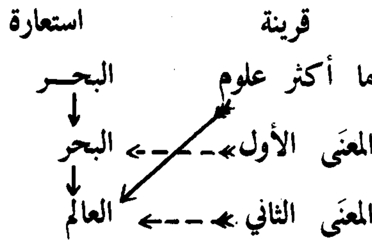


تحليل المثال : في الوقت الذي نجد القرينة تؤكد أو تشير إلى معنَى المعنَى ، أي أن المخرج يكون امامنا مرسوما أو شبه مرسوم للمأزق الذي تسبب فيه وجود كلمة أسد إلى جانب القرينة (في الميدان) . إن الانتقال من المعنَى إلى معنَى المعنَى يتم بشيء من السهولة وذلك بفضل القرينة . ونحن لا نتوقف كثيرا عن المعنَى الأول بل ندفع دفعا إلى المعنَى الثاني الذي تفرضه القرينة . إن العملية إلى هذا الحد تتم من جهة بسهولة ومن جهة أخرى فإن اللذة الجمالية الاستعارية تكون للحظة قصيرة نسبيا . هذا لأن المدلول الأول لا يبرره الا المعجم لا يبرره الا كونه قد ثبت في الاذهان ملازمته لهذا الدال . لذلك فإنه هنا يخضع لضغط المدلول الجديد فيحاول تهميش الأول . هناك اذن عدم توازن . وبما بين المدلولين وهناك سعي ونزوع المدلول الثاني إلى السيطرة . إنه يثبت وجوده مدعما بالقرينة ، ومن نتائج هذا اللاتكافؤ تقلص اللذة الجمالية نسبيا . ما المخرج لهذا ؟ المخرج يكمن في ادخال عنصر يعيد التوازن المفقود ، عنصر يدعم الجانب المهزوم الذي هو المدلول الأول لذلك يأتي الترشيح الذي يؤكد المعنَى المعجمي للكلمة في وجه القرينة التي تنفيه . في هذه الحالة ماذا يحدث ؟ القرينة تدعم معنَى المعنَى والترشيح يدعم المعنَى ، وهذا كله يطيل من عمر الصراع بين المدلولين الأول والثاني ·وبفضل هذا يدوم أيضا التلذذ الجمالي الذي يحدثه هذا التركيب وهذه العلائق بين العناصر المكونة للجملة ككل التي تستوعب القرينة والاستعارة والترشيح .

اما الآن فلننتقل إلى الاستعارة المجردة :



تحليل المثال : نستطيع أن نستعيد نفس التحليل المقدم المتعلق بالاستعارة والقرينة لكن بعد هذين العنصرين يكون كل شيء مختلفاً ، إذ أننا عندما نصل إلى حالة عدم التكافؤ بين المعنَى المعجمي والمعنَى الجديد ، يتدخل عنصر جديد لكنه لا يتدخل لدعم المعجم أو المعنَى الأول كما حدث مع الترشيح إنما يتدخل للاجهاز على المعنَى الأول وتقديم دعم اضافي للمعنَى الثاني . بمعنَى آخر فاني أكاد أقول بأن التجريد قرينة إذ أنها تكاد أن تقوم بالفعل بنفس وظيفها ، فلو أننا الغينا القرينة واكتفينا بالتجريد لقام مقام القرينة المحذوفة ولأدَّى دورها كاملا .



ان هذا ليوضح ليس تشابه التجريد بالقرينة وحسب بل يظهر كم هو معقول ان تعتبر قرينة ثانية . إذا تركنا هذا فرجعنا إلى المثال السابق للاستعارة التجريدية فإني أقول ان من مضاعفات هذه الحالة على نفسية المتلقي الاحساس بخيبة أمل ، فهي تحمل احتقارا مبطنا للمتلقي وكأنها تعتبره عاجزا عن الوصول إلى المدلول الثاني فتسلم له وسائل أخرى لانجاز ذلك العمل . ومع هذه الحالة فإن اللذة الجمالية هي الأخرى التي تتحقق في نقطة الاستعارة يأتي التجريد فيجهضها ، لهذا كله نستطيع القول بأن الاستعارة العارية من الترشيح والتجريد تشكل مكسبا بالمقارنة مع المجردة إذ انها على الأقل تترك لنا هامشا من الحرية والمغامرة في الانتقال من المعنَى الاول

إلى الثاني فهناك امكانية للاكتشاف والابداع بشكل لا يتحقق مع المجردة ، لهذا أيضا احس القدماء بشيء من هذا ففضلوا الترشيح على التجريد كما فضلوا المطلقة على المجردة أيضا ، كل هذا كان بامكان السكاكي ان يفعله لأنه كان يملك مفتاحه الذي هو المعنَى ومعنَى المعنَى . لكنه لم يقدم على هذه العملية وربما يعود السبب في ذلك إلى تجاهل صفة النزاع la tension (حسب تعبير جماعة مو) بين المدلول الأول والمدلول الثاني .

الاستعارة الأصلية والتبعية

ان السكاكي عندما حصر الاهتمام في التفكير في الاستعارة التصريحية والمكنية والمرشحة والمجردة كان قد عثر على الموضوع الحقيقي للبلاغة لماذا ؟ لاننا عندما ينصب اهتمامنا عليها فإننا نكون منكرين في شاعرية الاستعارة أو انتفائها . اما الحديث عن الاستعارة الأصلية والتبعية فعلاوة على اختلاطها بالتصريحية والمكنية مما يجعل اثارتها غير مبررة . والمثال التالي يظهر شيئا من هذا :

نَطَقَتِ الْحَالُ

هناك من يقول ان هذه استعارة تبعية في الفعل نطقت . لكن ألا يجوز اعتبارها في هذه الحالة مكنية ، خاصة إذا عرفنا أن المثال لا يحتمل الا امكانيتين .

الأولى : ان تكون كلمة نطقت هي المجازية والحال حقيقية ، وقد اسندنا اليها فعل النطق وهي علاوة على ذلك مستعار له ، وهذه استعارة مكنية بالحرف .

الثانية : ان تكون الحال هي المجازية استعملت بمعنَى ما ونطقت حقيقية وحينئذ ستكون بصدد الاستعارة التصريحية ، فالاستعارة الأصلية والتبعية إذن لا تعني أن وصف استعارة جديدة من نوع آخر تضاف إلى التصريحية والمكنية والمرشحة والمجردة بالعكس انها تصنيف آخر من زاوية أخرى لنفس الاستعارات السابقة ، انهما تحقيق لتراكم في المصطلحات وتعقيد للبلاغة أكثر مما هو تبسيط لها ، ربما كان السكاكي يحس بشيء من هذا عندما ضم الاستعارة التبعية إلى المكنية كما فعل بالمجاز الفعلي ، وربما كان هذا العمل أقرب إلى المعقولية ، وفي هذه الحالة يناقش السكاكي في مدَى توفيقه في وصف الاستعارة المكنية .

المجاز العقلي

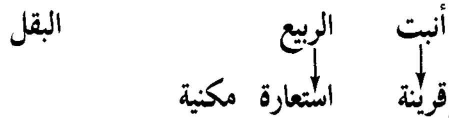
لعل المشكل الذي اثاره المجاز العقلي لم يثره أي موضوع آخر في البلاغة العربية ، ولعله مشكل زائف لا يجب أن يطرح في مجال البلاغة إطلاقا ولا يشكل بالتالي موضوعا لهذا العلم ، صحيح ان مثل هذه التعابير المصنفة ضمن المجاز العقلي قد توجد في الشعر ، لكن اعتماد الشعر على هذه الاداة التعبيرية لا يعني ضرورة دراستها من طرف البلاغة ، فعلم البلاغة يدرس «الشعرية» أي الأدوات ذات التأثير في المتلقي من هنا يمكن القول بأن موضوع البلاغة هو دراسة الجوانب الشعرية أو الأدبية في الشعر أو غيره ، لهذا تقول بضرورة التمييز بين المجال الذي يتحرك فيه عالم الأدب والبلاغة وبين موضوعه ، فمجاله عادة هو الشعر وقد يكون غيره لكن موضوعه ليس الشعر وكفَى أو ليس هو الشعر كله بل تلك الجوانب والمعطيات ذات الطابع الجمالي المؤثرة في المتلقي ، أقول هذا وأنا أحس بحرج شديد متهيبا الموقف ازاء ما يسمَّى بالمجاز العقلي ، فهو دون أدنَى مبالغة يعبر عن وجود خلل ما في هذا الصرح ، أقول هذا وأنا أفكر في أن السكاكي بعد أن تحدث على غرار السابقين عن المجاز العقلي ، راجع موقفه فادخله في الاستعارة المكنية ، أقول هذا وأنا أفكر في القزويني الذي اعتبر الاستعارة المكنية مجازا عقليا في جانب من جوانبها ، أقول هذا وأنا أظن مجرد ظن أن البلاغة الغربية لم تتحدث عن شيء اسمه المجاز العقلي بل ان المجاز الاسنادي عندهم ينضوي تحته المجاز المرسل والاستعارة .

يظهر أن البلاغة العربية خاصة عند الجرجاني كانت قد ميزت في الجملة بين المسند إليه والمسند أي موضوع الحديث والاخبار عنه والجرجاني يقول اذا حدث أن أسند فعل إلى غير فاعله الحقيقي عد ذلك من قبيل المجاز العقلي ، مثل «أنبت الربيع البقل» المسند إليه هو الربيع والمسند هو أنبت البقل ، لماذا ؟ لأنه لا يعقل أن يكون فعل الانبات خاصا بالربيع ان ذلك خاص بالله وحده . وحسب هؤلاء فإن الكلمات في هذه التعابير ذات دلالة وضعية اصطلاحية والمجاز هو في اسناد هذا الفعل إلى غير فاعله الحقيقي .

إن المسألة هنا تبدو وكأنها امتداد للسجال الذي دار بين الفرق الدينية حول حدود الفعالية الانسانية والالهية ، بل وكأنها امتداد لمشكلة الجبر والاختيار ، فالسنة تفترض ان الفاعل الحقيقي هو الله ، أما المعتزلة فيعتقدون أن الفاعل هو الانسان

(نسبيا) من هنا لن نستغرب ان يسارع عبد القاهر الجرجاني إلى تصنيف مجموعة من التعابير التي يظهر وكأن الفاعل غير الله ضمن المجاز مادام الفاعل الحقيقي هو الله، كان يفعل هذا وهو يستلهم الموقف السني الاشعري الذي ينسب إلى الانسان نوعا من القصور في الفعل.

لكن السكاكي المعتزلي لم يكن يترك مثل هذه الأمور تمر دون أن يحدث فيها تغييرا ما خلال عملية الأخذ أو الاستفادة من الجرجاني، لقد كان يحدث تغييرا في كل ما يشم منه رائحة موقف ديني مخالف لموقفه ولم تكن الأمور لتنطلي عليه وهو يواجه المجاز العقلي لذلك نفى في آخر عرضه أن يكون هناك شيء اسمه المجاز العقلي، فالمجاز حسب السكاكي كله لغوي، وما المجاز العقلي الا استعارة مكنية، لذلك قال: «فالذي عندي هو نظم هذا النوع من سلك الاستعارة بالكناية بجعل الربيع[1] استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بوساطة المبالغة في التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما عرفت وجعل نسبة الانبات اليه قرينة للاستعارة».



ملاحظـــة :

إن ما فعله السكاكي ليس حلا للمشكلة إذ أنه الآن سيصطدم بمصاعب لا تقل خطورة عن الأولى، ومن بين هذه المصاعب على سبيل المثال لا الحصر ماذا سيقول الآن عن المشابهة، صحيح أنه حاول الجواب قائلا بوجودها لكن ذلك الجواب كان من جهة غامضا ومن جهة أخرى فإن السكاكي نفسه أحس ان ما قدمه ليس حلا شافيا، لذلك نراه يقول في آخر هذا الفصل: «وإذ قد عرفت ما ذكرت وما ذكروا فاختر أيهما شئت».

إن الدارسين المحدثين أنفسهم استغلق عليهم الأمر، فهذا أحمد مطلوب في دراسة مطولة عن السكاكي يطرح المسألة بطريقة موغلة في الشكلية وكأن المشكل يتعلق بمجرد التبويب انه يقول في عرض حديثه عن المجاز العقلي عند السكاكي والقزويني: «وما أحرَى هؤلاء ان يفردوا له بابا خاصا ويجعلوه أحد مباحث البلاغة

(1) اشارة إلى المثال «انبت الربيع البقل».

بعد أن يلغوا التقسيم الثلاثي ، وبذلك تتخلص البلاغة من هذا النزاع الذي ليس فيه جدوَى والذي لا يؤخذ أو يقدم في بحث فنون البلاغة» . وهذا لطفي عبد البديع يقول في حيرة متحدثا عن المجاز العقلي لدَى السكاكي : «وكان السكاكي أقرب إلى روح البلاغة حين انكر المجاز العقلي وأخرج التراكيب التي حملها عليه غيره فخرج الاستعارة بالكناية» ان هذه الوضعية وهذا الطرح ليسدعي مني جملة ملاحظات .

نفي المجاز العقلي من البلاغة

1 — ان المجاز يكون مجازا إذا كانت الكلمة تحتل مكان كلمة أخرى لعلاقة معينة ويشترط في هذا أن يكون المتلقي محسا بهذا وان يكون معنَى الكلمة الاصطلاحي غير مقصود في ذاته . بل ان يكون معنَى المعنَى هو المقصود شريطة أن يحدث في دهن المتلقي اصطدام المفهومين في نفس الكلمة ، فإذا انتفَى هذا الصدام انتفَى المجاز وأصبحت الكلمة حقيقية ، أو على الأقل مجازا مستهلكا قريبا جدا من الحقيقة . ولعل كثرة الاستعمال يقضي على مجازية الكلمة فيمحي المعنَى القديم ليسيطر المعنَى الجديد وحينئذ يصبح حقيقة ، والأمثلة المقدمة على غرار «انبت الربيع البقل» أو «وأخرجت الأرض أثقالها» المصنفة ضمن المجاز العقلي عندما نسمعها لا نتصور أي نزاع من هذا النوع المشار إليه أو حتَّى نزاع بين تركيب وآخر ، إن هذا ليؤكد أن هذه التعابير ليست من المجاز .

2 — يبدو أن البلاغيين خلطوا بين شيئين لا يجب أن يختلطا الأول منطق الواقع أو قوانينه الخاصة الثاني منطق اللغة ، وإذا اعتبرناهما نسقين يتحركان نسبيا في استقلال الواحد عن الآخر ، ادركنا كم هو خطير محاولة جعل احدهما اللغة انعكاسا حرفيا للآخر .

إن للغة مرونة ربما لا يملكها الواقع لذلك فهي تتقدم عنه وقد تتأخر كما أنها تختزل الواقع نفسه وتعبث به وبنظامه ، وكل ذلك في إطار ما يحتمله هذا النسق اللغوي ، والوهم بالانعكاس الحرفي هو الذي جعل هؤلاء يبحثون عن الفاعل الحقيقي في تلك الجمل المقدمة آنفا .

الا يجوز اعتبارا لكل هذا اعتبار المجاز العقلي لا يشكل موضوعا للبيان وبالتالي

فلا تجوز فيه ، والأفضل الحاقه بمجاز آخر غير البيان وإذا كان بعض البلاغيين يلحقه بالمعاني فإني أقول بأن أغلب مواضيع المعاني شيء ينتمي إلى النحو والتركيب أكثر من انتمائه إلى البلاغة كعلم يدرس أدبية النص .

خـلاصــــة

هكذا يتضح كم هو ضروري اللجوء إلى النصوص البلاغية الموروثة لاجل دراستها معيدين صياغتها (خاصة بالنسبة الينا نحن الذين عشنا ثورات فكرية لا تشكل اللسنيات الا واحدة منها) وفق مفاهيم دقيقة واضحة تراعي استقلال البحث البلاغي عن مجاله الشيء الذي تجاهله أغلب الباحثين البلاغيين العرب المحدثين ، حينما يتهمون السكاكي بأنه جمد البلاغة العربية وبالمقابل لا يبخلون بالثناء على البلاغيين الذين يتنكرون للتعريفات الدقيقة معوضين اياها بتعريفات عامة غير واضحة تستوعب وقائع شديدة التنافر ، فلنستمع إلى ما يقوله أحدهم ، يقول أحمد مطلوب : «ونحن مع هذا لا ننكر أن تكون للفن قواعد ومصطلحات كما للعلم مصطلحات وقواعد ولكن الذي ننكره أن تصل الحال إلى ما وصلت إليه عند السكاكي ، لأنه ينبغي «أن يظل الفرق بين القاعدتين ثابتا ، وهو أن القاعدة العلمية تقود وتلتزم حتّى توصل إلى المعرفة ، أما القاعدة الفنية فانها ترشد ولا تلتزم وتقود إلى الابتكار الذي هو غاية الفن لا إلى المعرفة التي هي غاية العلم» ولكن عمل السكاكي في المصطلحات عمل علمي أكثر منه عملا فنيا» .

ان هذا ليوضح اعتراف الدارسين العرب المحدثين ان عمل السكاكي علمي بغض النظر عن معنى العلم عندهم وهم لا يكتفون بهذا بل ينادون بترك هذا الطريق والعودة إلى الفن حيث يتلاشى الفاصل والحد بين موضوع الدراسة الأدب أو الفن وبين منهاج دراسة هذا الأدب . أخيرا نتساءل هل كان السكاكي محبدا للبلاغة أم أنه كان ساعيا لبناء علم البلاغة ؟

الاستاذ محمد الولي